

علم النفس

وصلته باللغة والأدب والاجتماع

لـمؤلفه محمد خلف الله

المدرس بالجامعة المصرية

— ١ —

مقدمة

هذا الموضوع — على طرافته — حلقة من سلسلة مباركة ، بدأها من قبل أساتذتنا وإخواننا في علم النفس ، فذلّلوا بها صعوبة الأداء اللغوي ، ومهدوا فيها طريق التأليف . وقد اجتمعت لدىّ فيه طائفة صالحة من الأبحاث (في كتاب معد للطبع) رأيت أن أقدم بمض نواحيها إلى قراء صحيفة « دار العلوم » جاعلاً نصب عيني غرضين أساسيين :

الأول : أن أساهم في التعريف بنظم الدراسة النفسانية وتطبيق الصالح منها في دراساتنا وأبحاثنا المصرية

والثاني : أن أقوم بتصبي في خدمة اللغة العربية من تجديد في دراساتها ، وتوسيع لثروتها ، وتحديد لمصطلحاتها ، حتى تقوم بوظيفتها في الأبحاث العلمية الحديثة على الوجه الأكمل ، وحتى تتمشى وروح الدقة في العصر العلمي الحاضر وقد آثرت فيما كتبت أن أدع الناحية التاريخية جانباً ، وأن أقتصر على أحدث ما وصل إليه علم النفس ، لأعرض منه صورة لطيفة ، يلذها الربّي والقارىء ويجد فيها جمهورنا المثقف عوناً على تتبع الحركة الفكرية في الممالك الراقية . وأنا في هذا أتبع نموذجاً في البحث والتأليف لفت نظري كثيراً أيام دراستي في الخارج وعلى الأخص في إنجلترا ، إذ وجدت القوم يتجهون إلى الأمام دائماً فيما يفكرون

ويعملون ؛ فهذا المؤلف ينقد رفيقه ، وذلك الباحث يبتدي من حيث انتهى
أخوه ، وهكذا يتناول القوم تراهم العلمي فيزيدون فيه ، ويبذون كما بنت أوائهم ،
ويجمعون في طريقهم بين الاستمرار والتجديد

هذا وقد خصصت الأجزاء الأولى من البحث لنمو اللغة وترقى الفكر عند
الطفل ، وعلاقة كل ذلك بمقدار الذكاء عنده ؛ وهذا منزع حداً بي إليه الميل
الأدبي الذي أشربته منذ الصغر ، والدراسة اللغوية التي تيسرت لي قبل تخصصي
في علم النفس ؛ وكان مما شجعني على سلوكه أن رأيت الأبحاث النفسانية الحديثة
(وقد جعلت ميدانها التصرف الناتئ ، واللغة بعض ذلك التصرف ، بل عنوانه
وترجمانه) قد ولجت على اللغة أبوابها ، وأوغلت في كشف أسرارها على أناس
علمي تجريبي ، فأصبح عالم فقه اللغة ، وعالم النقد الأدبي ، يعتمدان على النتائج
التجريبية لعم النفس فيما يقرران من نظرية أو يسوقان من برهان . وهذا دين قام
بوفيه علم النفس الحديث للغة ، فقديماً أذاع الشعر والقصص كثيراً من أسرار
النفس ، وأمدّ الفلاسفة والنفسانيين بالمادة التي ارتكزوا عليها في دراساتهم ،
وقديماً أسدى علم النقد الأدبي إلى علم النفس أباى جمة بما هذب من استعمال
الألفاظ ، وحدد من مدلول المبارات التي كان يستعملها العلماء في التعبير عن
النفس وأحوالها ، والمقل وتجاريه ، والتصرف ومظاهره . ولهذا كان إذا ذكر
علماء النفس بالمعنى العام دخل فيهم الشعراء والروائيون والكتاب

وقد ظل هذا القران بين الأبحاث النفسية الأدبية ، والأبحاث النفسية
العملية ، ردحاً من الزمن ، حتى أخذت الدراسات الطبيعية قلبها العلمى المضبوط ،
وسرى الأثر منها إلى دراسات النفس ، فأصبحت فرعاً يدرس لذاته ، ونشأ بينه
وبين القرن القديم جفوة وبماد . هذا التناى لم يكن منه بد ، فان الباحث العلمى
الذى يحاول أن يصل إلى قواعد وقوانين عامة للتجارب ، مضطر أن يضع فروضاً
ونظريات ، وأن يزن الألفاظ بميزان حساس ، وقد ينلو في ذلك فينقلب علاجه
للموضوع أبحاثاً نظرية جدلية ، لا تدنى من فهم الطبيعة الانسانية ، وإنما تباعد

عنه ، وتخرج بعلم النفس عما قال فيه ابن رشد : « وعلم النفس أغمض وأشرف من أن يدرك بصناعة الجدل » هكذا كانت الحال في القرن الماضي حين كانت الأبحاث النفسانية إنما يقصد منها شحذ القريحة والتفنن في ضروب الحجج ، والمهارة في التفريع والتدقيق ، على أن ذلك لم يدم طويلا ، فقد بدأ الناس يدركون أن هذه النظريات النفسانية على ما بينها من تناقض وخلاف ، ممكنة التطبيق في الحياة العملية ، فطبق بعضها ونجح ؛ وانصرفت همه الكثيرين من الباحثين إلى ما يسمى الآن علم النفس التطبيقي ، وأصبحت ترى حتى علماء الأدب وفقهاء اللغة يفشون حدائق هذا العلم ليقطفوا منه ما يمينهم على فهم التجارب والآراء الانسانية ولست في حاجة أن أتوه هنا بما لعلم النفس الآن من منزلة في الشعوب المتحضرة فقد أصبح عماد الربى ، وقوام التاجر ، وسلاح السامى ، وعدة الطبيب ؛ وأصبح القوم يمتدرونه المحور العام للدراسات الانسانية ، عليه تعتمد هذه الدراسات ، وفيه تجد أساسها الذى ظلت تنشده زمناً طويلا ، ولئن كان القرن التاسع عشر قد اصطبغ في تفكيره بصبغة علوم الحياة ، إن القرن الحاضر ليعتبر عصر العلوم الانسانية ، ففيه تفررت هذه الدراسات من ربة النظريات الفلسفية ، وأخذت تدنو رويداً من حظيرة العلوم الحديثة ، حتى أصبح المعمل والقياس والتجربة دعائم أبحاثها ، وحتى أصبحت الفلسفة ربيبتها ونهايتها لا مصدرها وبدايتها هذا التحول الكبير في وجهة النظر العلمى يدركه كل من درس الفلسفة أولا ، واصطدم بنظرياتها وألغازها حتى تشعبت به السبل واختلطت عليه الموارد فراح يبنى نجوته في فرع كعلم النفس مبنى على المشاهدة والقياس ، ولقد قدر لى في ثمانى السنوات التى قضيتها في أوربا أن سلكت هذه السبيل ، فدرست الفلسفة وفروعها من علوم نفس واجتماع وسياسة ومنطق وأخلاق وجمال وإلهيات ، فما إن قطعت شوطاً حتى وجدتني أميل إلى التخصص في ناحية واحدة هى ناحية علم النفس ، فدرسته عملاً وتجربة فوق دراسة البحث والنظر ، ثم اخترت من ميادينه الواسعة ميدانين : سيكولوجى اللغة ، ونفسانية الأطفال

فوهبتها معظم جهدى وزمنى ، وقضيت حوالى السنتين متنقلا فى المدارس الابتدائية أدرس الأطفال فى منطقهم وتفكيرهم ، ثم دوت بعض النتائج فى رسالتى التى قدمتها لدرجة الماجستير من جامعة لندن

هذه الدراسة الشخصية التى قمت بها هى التى عنيت الآن أن أنقلها إلى القارىء فى ثوب عربى ، وحرصت أن أجعلها صورة متحركة للطفولة من مهدها إلى رشدها ، وقرنت فيها النتائج بمصادرها ، حتى يسهل على إخوانى المربين وطلبة الفلسفة وعلم النفس واللغة ، تتبعها فى مواطنها والاستزادة منها ؛ وسأتناول فى المقال التالى طرق الدراسة النفسانية التى ستكرر الإشارة إليها فى نقاط البحث ، إن شاء الله .

محمد خلف الله